التراث الصخري والمدن الأثرية في منطقة وادنون فريق البحث الأركيولوجي يتوصل إلى نتائج هامة قد تعيد كتابة تاريخ المنطقة

د. بوزيد الغلى(منتدى تراث الصحراء للأبحاث بكلميم – واد نون - المغرب)

ملخص:

تسلط هذه المقالة النور على جانب من التراث المادي الذي تشتهر به منطقة وادنون الواقعة شمال الصحراء، بدءاً من التراث الصخري الذي كشفت البحوث الأركيولوجية الميدانية ثراءه وأهميته، إذ النقوش الصخرية في عدة مواقع مثل : موقع أدرار نْزَرْزَم قرب تاغجيجت، واد فياض الكرة ضواحي مدينة الزاك....)، كما أن المدافن ومختلف مظاهر العمارة الجنائزية تعتبر وثائق مادية تسهم في التأريخ للمنطقة، وقد تمكن فريق البحث الأركيولوجي الاسباني المغربي من «اكتشاف أكثر من 270 موقع أثري يعود لما قبل التاريخ، فضلا عن مدن العصر الوسيط مثل نول لمطة وتكاوست.

Abstract :

This article sheds light on a part of the material heritage, which is famous and important for the oued-noun region situated in the north of Sahara ; including the rock heritage whose importance and richness were revealed by the field archeological researches. There are rock carvings in several locations such as: the location of the Adrar Nzerzm near Taghjijt, Oued Koor AlFayyad in the out skirts of Zag...).Besides, the tombs and the different features of the funerary architecture are material sources contributing to the history of the region. A spanish-Moroccan archeological research team discovered more than 270 pre-historic sites in addition to medieval cities such as Noul Lamta and Tagaoust.

مقدمة :

أسفرت الأبحاث الأركيولوجية المنجزة بمنطقة وادي نون من قبل فريق بحث أركيولوجي اسباني- مغربي عن اكتشاف لُقى ونقوش صخرية تعود لعصور ما قبل التاريخ

وبقايا مدن أثرية تؤيد ما سجله الرحالة السابقون من أمثال ليون الإفريقي في كتابه «وصف إفريقيا» عن حضارة المنطقة في العصر الوسيط وعلاقاتها التجارية مع دول البحر الأبيض المتوسط والعمق الإفريقي .

1 - النقوش الصخرية :Gravures Rupestres

صدر مؤلفو كتاب « نقوش صخرية من إقليم السمارة حديثهم المسهب عن النقوش الصخرية بالقول « إن النقش والرسم عبارة عن وسيلتين للتعبير تعتمدان على استعمال مساحة صخرية لتسجيل صورة أو رسالة أو رمز. ...(ومن المؤكد) أن دراسة هذه النقوش التي تعكس انشغالات إنسان تلك المرحلة، تسمح للباحثين بالتبصر فيما كانت عليه أنشطتهم، والصلات التي كانت تربطهم بمجالهم وفيما بينهم ،ومع الجماعات، والأفكار المرتبطة بالمعتقدات الدينية، وتلك التي تعبر عن أحاسيسهم الفنية والجمالية «1.

وقد أظهرت البحوث الأركيولوجية المنجزة بعدة مواقع للنقوش الصخرية مثل (موقع العصلي بوكرش بالسمارة، موقع أدرار نْزَرْزَم قرب تاغجيجت، واد فياض الكرة ضواحي مدينة الزاك....)، أن هذه المناطق الصحراوية القاحلة كانت في الماضي خضراء معشوشبة، إذ إن وجود رسوم الكركدن (وحيد القرن) «بمواقع أسا -الزاك دليل قاطع على مدى الرطوبة التي احتفظت بها المنطقة في النصف الثاني من الفترة الهولوسينية، ولكي يعيش وحيد القرن ويضمن استمراريةً في مجال طبيعي معين، يتطلب ذلك تساقطات سنوية مهمة لا تقل عن 300 ملم في السنة موزعة بشكل متوازن ...(كما) أن الفيلة ,.. تتطلب وسطا طبيعيا ذا غطاء نباتي وفير، حيث يحتاج الفيل لأكثر من مائتي كيلوغرام من العشب يوميا، وبالتالي تؤكد نقوش هذا الحيوان، إلى جانب الكركدن، رطوبة المنطقة أثناء عصور ما قبل التاريخ 2 «، ويجمع دارسو النقوش الصخرية على أنها قد « تأثرت بفعل الرياح المحملة بالرمال ...كما أن التفاعلات الفيزيائية الكيماوية تؤثر على النقش وتتسبب في تكوين الزنجارPatine- ؛ وهو نوع من البرنيق اللامع يظهر في خطوط النقش في حد ذاتها، (,,) (و) إذا لم يكن لحد الآن أحد الوسائل الفاعلة في تأريخ النقوش الصخرية، فإنه على الأقل يضمن تحديد أصالتها «3، وقد أقر الدكتور المجيدي بأن « أكبر مشكلة يواجهها البحث الأثري في مجال التراث الصخري المنقوش والمرسوم هي التأريخ»4، داعيا إلى «إعداد بنك شامل ومدقق للمعطيات حول التراث الصخري والعمل على توظيف هذا التراث في إعادة تملك الثقافة المحلية واستهلاكها في الحياة اليومية للسكان ...، والعمل على توظيفها في سياحة ثقافية بمناهج متعارف عليها دوليا «5

صور نقوش صخرية بموقع زرزم[6]

2 - المدافن القديمة :

تعد المدافن والجثوات ومختلف البنايات المأتمية المنتشرة في مواقع شتى بالصحراء تراثا ماديا بالغ الأهمية، إذ يمثل وثائق مادية تسهم في تأريخ المنطقة، وقد وضع فريق البحث الأركيولوجي الاسباني المغربي برنامج عمل مكنه من «اكتشاف أكثر من 270 موقع أثري، تمتد من ما قبل التاريخ إلى الفترة الإسلامية : 20 موقع تنتمي إلى العصر الحجري، 22 إلى العصر الحجري الحديث، 75 إلى ما قبيل التاريخ، 8 إلى العصر الوسيط، 51 إلى العصر الحديث، 100 لفترات غير محددة7»، ومن أهم المواقع التي تم بها التنقيب :

مقبرة أدرار نزرزم : وهي « تضم أزيد من ثلاثين قبرا، تم التنقيب في ثلاثة منها فقط، يحيط بكل واحد منها جدار دائري الشكل تقريبا، بأقطار تتراوح بين 7,40 و7,80 مترا ...، بداخل هذه القبور غرف للدفن بيضاوية الشكل، محفورة في التراب بصف من الحجارة الكبيرة على السطح مبلطة بحصى من الشيست تشكل سريرا للدفين . يتعلق الأمر بمدافن فردية لإناث بالغات، لقد تم العثور في الموقع على ما يلي : سواران من الحديد ...، طوق عنق مكون من قطع على شكل حبات من بيض النعامة وأسطوانة من نحاس، خاتم من النحاس، ثلاثة رقائق من الفلينت، ولوحظ أيضا وجود سرير جلدي تحت الهيكل العظمي للدفين وضع بشكل محكم ومضبوط»8 . والواقع أن الحلي المستخرج من المدفن، يقدم صورة عن وسائل « الزينة « في تلك الفترة المتقدمة من الزمن، كما يحيل على معتقدات قديمة تتعلق بطقوس الدفن، حيث تطمر مع الميت بعض نفائس ممتلكاته .

نموذج للتشكيل الهندسي لأحد قبور الموقع الأثري لأدرارنزرزم[9]

أحد الهياكل البشرية المكتشفة في الموقع تظهر طريقة الدفن وشكل القبر الدائري

3 - مدافن منطقة أسا- الزاك:

وثق الباحثون حوالي 270 مدفنا وحرمة قبيل تاريخية، ولاحظوا انتشارها على طول المجاري القديمة للماء (واد أسا، واد امستيل، واد سكدت، واد فياض الكورة، واد التويزكي، واد الزاك، واد لمزيريكة ...، كما سجلوا تنوع أشكال المدافن القديمة، مما يوحي بانفتاح واسع على الصحراء الكبرى10.

4 - المواقع والمدن الأثرية :

تكاوست :

وصف محمد بن الحسن الوزان هذه المدينة الأثرية المندثرة قائلا: « تكاووست مدينة كبيرة، وهي أهم مدن سوس على الإطلاق، بها ثمانية آلاف كانون، وسورها من التراب المدكوك، تبعد عن المحيط بنحو ستين ميلا، وعن الأطلس بنحو خمسين ميلا إلى جهة الجنوب ....وفي وسط المدينة دكاكين كثيرة للتجار والصناع 11»، وقد اعتقد الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر مترجما كتاب « وصف إفريقيا « أن الحدود والمسافات التي قدمها الوزان عن المدينة لا تنطبق على مدينة « لقصابي «، واستبعدا أن تكون المدينة الحالية قائمة على أنقاض تلك المندثرة 12، غير أن الحفريات المنجزة من قبل علماء الآثار مؤخرا أيدت شهادة الوزان، فقد خلص التقرير الأولي المنجز إثر انتهاء فترة التحري الأولى المنجزة مابين 09 إلى 22 مارس 2012 إلى نتائج من أهمها :

-العثور على سور ضخم إثر أعمال الحفر، ولا يعرف إلى حد الآن أهو سور محيط بإحدى القصبات أم أنه سور المدينة الذي تحدث عنه الوزان ؟

-تحديد ثلاث مستويات من السكن على فترات زمنية متعاقبة من الأعلى إلى الأسفل (ما بين القرنين 16 و14 الميلاديين)، الأمر الذي يؤكد وجود عمران ضخم يتناسب مع الكثافة السكانية التي تحدث عنها الوزان مستخدما المصطلحات العامية المتداولة (8000 كانون)، والكانون وفق الاصطلاح المحلي هو موقد النار، ويقصد به العائلات المتفرعة عن أصولها والمستقلة من حيث نفقاتها، وقد قدر التقرير الأركيولوجي أن يضم هذا العدد من « الكوانين حوالي 30.000 نسمة.

-اكتشاف بقايا من مواد البناء والزخرفة الفاخرة أثبتت التحاليل نسبتها إلى إيطاليا، الأمر الذي يدل على وجود علاقات تجارية مع الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط .

وقد استأنفت الفترة الثانية من التحريات الميدانية الأثرية بالموقع ذاته خلال الفترة الممتدة من 27 فبراير 2014 إلى 11مارس 2014، وتشير الصور المنتقاة إلى بروز معالم المدينة المكتشفة على نحو نافٍ للشك، فضلا عن وجود لقى وبقايا أواني خزفية .

نموذج من بقايا سور « تكاوست « بعد تقدم أعمال التنقيب عند بداية الحفر[13]

لقى وبقايا من الخزف موقع « موكادير أوزدارMougadir Ouzdar:

أظهرت التحريات التي طالت هذا الموقع الأثري الهام الواقع على بعد حوالي 39 كلم شرق مدينة كليميم، أنه كان مأهولا، إذ توصلت التحليلات المنجزة في مختبر بالولايات المتحدة الأمريكي ةLaboratoire américain Beta على عينات من الفحم مأخوذة من المكان الذي تتواجد به بقايا طاحونة تقليدية، أنها تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وتسمح الصور الملتقطة من الموقع بالتعرف على جانب هام من الهندسة المعمارية الرائعة ..

MougadirOuzdar : unité d'habitat à décor architectural

طاحونة مكتشفة بموقع MougadirOuzdar

Mougadir Ouzdar جانب من المعمار التقليدي بموقع نول لمطة :

تحدث مؤرخون ورحالة ومستكشفون كثيرون عن نول لمطة التاريخية كالإدريسي والبكري وابن حوقل وابن خلدون14، وقد وصفها محمد بن عبد المنعم الحميري في كتابه

«الروض المعطار في خبر الأمصار» قائلا : «من بلاد السوس الأقصى بالمغرب، بينها وبين وادي السوس الأقصى ثلاث مراحل، ومنها إلى البحر ثلاثة أيام، وبينها وبين سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة وفيها جزولة ولمطة. ومدينة نول إحدى مدن الإسلام، وهي مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط، وعليه قبائل لمطة ولمتونة، ومن مدينة نول إلى وادي درعة نحو ثلاث مراحل، وإنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنونها، وماؤها جار، وهي آخر بلاد السوس ...»، ورغم تواتر الروايات الواصفة للمنطقة واختلافها في تعليل تسميتها، فان المعول عليه، أنها قد بلغت أوج ازدهارها في عهد المرابطين، إذ تتحدث بعض المصادر عن تأسيس دار سك النقود الذهبية بها على عهد عثمان بن مندى الذي عينه عليها الأمير أبو بكر بن عمر.

ونظرا للأهمية التاريخية لهذه المدينة الأثرية، فقد انطلقت أعمال استكشاف المنطقة عام 1994، ثم توالت الحفريات والتحريات خلال السنوات الموالية بقيادة الباحث الاسباني خورخي بتعاون مع الباحث المغربي يوسف بوكبوط، حيث تم استخدام تقنيات الرادار، ولعل أهم ما كشفت عنه هذه الأبحاث سور المدينة الأثرية الذي يبلغ سمكه 3 أمتار، والصور التالية نشرها الأستاذ عالي بوخار نقلا عن الفريق الأركيولوجي المذكور[15] .

ـمال موجات الرادار

حسب فريق البحث الأثري هذا جزء من السور الذي كان يحيط بمدينة نول لمطة عرضه 3 أمتار أما معرفة علوه وطوله فتلزمه إكمال الحفر وتتبعه

3 أمتار

عملية الرسم اليدوية لمختلف اللقى الأثرية، وتجميع القطع الخزفية، مع تصنيفها ودراسة شكلها من أجل تحديد الفترة الزمنية التي تنتمي إليها هذه الموجودات

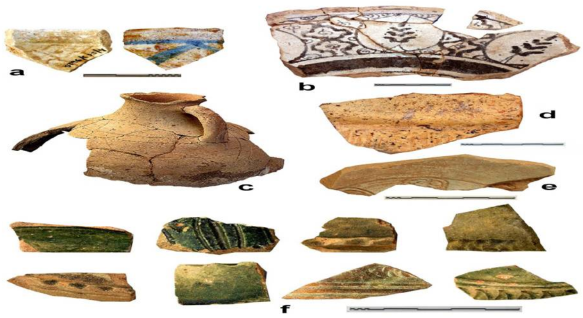

صور بعض التحف وبقايا الخزف[16]

خاتمة :

تسهم البحوث والحفريات الأركيولوجية في التعريف بالمواقع الأثرية وتأهيلها وإعادة الاعتبار لها وصيانتها من التلف والضياع والتدمير، وقد عبر الباحثون عن أسفهم لضياع وثائق مادية تمثلها بعض النقوش التي ضاعت نتيجة أعمال حفر عشوائي قامت به شركة خاصة تروم إنجاز مشروع سياحي بضواحي الطنطان، كما ناشد بعضهم الجهات المسؤولة لجم « الكنّازين « الذين يمارسون الشعوذة وينهبون وينبشون المدافن القديمة بدعوى وجود كنوز مركوزة فيها .

هوامش البحث:

1 عفراء الخطيب وآلينرودريك ومصطفى أعشي، نقوش صخرية من إقليم السمارة،، منشورات مرسم، الرباط، 2008 ص 160.

2 عبد الخالق المجيدي وعبد العزيز أهراس، لمحة عن التراث المادي بأسا الزاك من خلال تحريات ميدانية، دراسة منشورة ضمن مؤلف جماعي : « حاضرة أسا: عمق التاريخ وغنى الذاكرة، تنسيق محمد بوزنكاض، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، السنة 2012، ص -53 54.

3 نقوش صخرية من إقليم السمارة، ص 16.

4 عبد الخالق المجيدي وعبد العزيز أهراس، لمحة عن التراث المادي بأسا الزاك من خلال تحريات ميدانية «، ص 57.

5 نفسه، ص 58.

6 أنظر موقع جمعية أداي للمحافظة على الآثار والنقوش الصخرية، على الرابط الآتي : //:http blog-post_7.html/10/lachguer.blogspot.com/2013

7 YOUSSEF BOKBOT - LA NÉCROPOLE PROTOHISTORIQUE D'ADRAR ZERZEM (ANTI-ATLAS, MAROC), RÉSULTATS PRÉLIMINAIRES DES FOUILLES 20042005-.(HTTP://BOKBOT.E-MONSITE.COM)

8 الحسين ليتوس، التراث المعماري بمنطقة تغجيجت : الواقع ورهانات رد الاعتبار – بحث لنيل الماستر، إشراف : سعيد الخليل، جامعة ابن زهر بأكادير 2008-2009 ص 23-24.

9 الصورة مأخوذة من موقع الدكتور يوسف بوكبوط الباحث المتخصص في الأركيولوجيا، المشارك في فريق البحث بمواقع الآثار بوادنون، أنظر الرابط:

10 « عبد الخالق المجيدي وعبد العزيز أهراس، لمحة عن التراث المادي بأسا الزاك من خلال تحريات ميدانية «، 63-62.

11 محمد بن الحسن الوزان، وصف إفريقيا،، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983 ج1 ص 120.

12 أنظر تعليق المترجمين أسفل الصفحة 120 من الجزء الأول من كتاب وصف إفريقيا.

13 Rapport préliminaire de mission d'archéologie préventive,Tagaoust (Ksabi) et Mougadir Ouzdar (Igherm Igouzoulen) Province de Guelmim. 09 - 22 mars 2012

14 عالي بوخار :نول لمطة ،المدينة الأثرية التاريخية، مقالة منشورة على موقع صحراء بريس، على الرابط الآتي :

http://www.4non.net/news8595.html

15 عالي بوخار، نول لمطة، المدينة الأثرية التاريخية، مقالة منشورة على موقع صحراء بريس .

16 أنظر دراسة فريق بحث برئاسة مصطفى ناعيمي على الرابط الأتي :

https://www.academia.edu/5304973/La_ville_natale_de_S%C3%AEd%C3%AE_Waggag_N%C3%BBl_Lamta_et_l_arch%C3%A9ologie_de_l_oasis_d_Asrir